

إنعام كجه جي... Forget Bagdad



في «الحفيدة العراقية» (دار الجديد)، تبرز الروائية إنعام كجه جي تناقضات العراق من خلال شخصية زينة التي عادت إلى وطنها على متن دبابية أميركية. إنها مأساة المهاجر الذي وجد نفسه محاصراً بين عالمين لم يعد ينتمي إلى أي منهما

نوال العلي

ابتكرت الروائية إنعام كجه جي واقعا عراقيا - أميركيا مركبا، جاعلة شخصية «زينة بهنام» أرضية تبنى عليها هذا العالم المعقد. ولا يمكن إزاء عالم «الحفيدة الأميركية» (دار الجديد - بيروت) الذي يتضمن نقائضه فيه، إلا التعاطف مع المسألة الإنسانية التي تؤرق زينة وتجعلها تدور حول نفسها، ولا تصل في نهاية الأمر إلى طائل.

واقع الرواية يضع المرء أيضاً موضع الحيرة، والاستهجان من رؤية الصورة بالملقوب، إلى حد يصيبه التردد عند الحكم على موضوعية الكاتبة ومساواتها الجداد بالضحية: فكل الذين سقطوا في العراق تقدمهم كضحايا: مرة أصدقاء زينة في المعسكر الأميركي وقد قتلوا في عمليات انتحارية أو خطفوا، ومرة أصدقاء شقيقها مهيم في جيش المهدي.

زينة نفسها تصف حالتها بأنها «طالوة مقلوبة، مشروخة المرأة»، بالطبع مشروخة، وقد عادت مجدداً أميركية إلى العراق الذي فرت منه مع عائلتها وهي مراهقة، هنا، تكمن الإحجية النفسية التي تخضع لها كل شخصيات الرواية. إذ إن زينة مسيحية أميركية تعمل مترجمة في المنطقة الخضراء، غير بعيدة عن جدتها رحمة زوجة العقيد السابق في الجيش العراقي. وهذا ما يدفع زينة إلى التساؤل: كيف يمكن لجدها المسيحي الكلداني أن يكون قومياً؟ هذه التجربة التي تعيشها زينة تجعل كل من حولها يتردد في موقفه منها: هل هي عميلة خائنة؟ أم ضحية النظام الذي فر منه والداها؟ حتى إن أقاربها يطلقون عليها لقب «الكلب أبو بيتين». وبينما تحتج زينة على كجه جي في حوار تضمنته الرواية بين الشخصية والمؤلفة. هكذا، تروح زينة تدافع عن نفسها تجاه وصفها بأنها ربيبة الاحتلال، الضالة العائدة فوق دبابية أميركية، وهي التي تقاطعت مع تاريخها واختلقت معه، رائية الوطنية التي ولى زمانها وتهللت شعاراتها.

في الواقع، لن تتمكّن زينة المرفوضة من الجدة والأقارب، من أن تعيد إنتاج عراقيتها، لأنها ترى نفسها أميركية تعيش قطيعة مع القيم العراقية أيضاً. ألم تقع في حب أخيها من الرضاعة، رافضة قيمة ومفهوم أخوة من هذا النوع؟ بل إنها تحاول غوايته فتقابل بالصد والنبد. وهي الليلية، لتكون شاهداً على ذل وانكسار الكثيرين.

وإن كانت الأحداث بدأت مع شابة قوية تعيش حياة عادية، فإنها ستنتهي بها إلى امرأة وحيدة تعيش في شجن وحياة مقسومة على مكانين: الجندي هو نفسه الضحية، والعدو هو الحليف. وعلى رغم السلاسة الواضحة في نقل الأفكار، إلا أن صاحبة «سواقي القلوب» حملت الثقل كله في التجربة. فالعراقية ليست في بناء العمل، بل في أن القصة واقعية بحد ذاتها، حدثت وتحدثت كل يوم. إذ تتضمن الحكاية تفاصيل تتناحر فيها القيم الجميلة وتتضارب: أن تكون وطنياً، وتعمل وتجنّي المال لتعيش بكرامة

في المهجر، وأن تمنحك أميركا «المحتلة» هوية حرة يسلبها منك الوطن، وأن ترى الجندي إنساناً في لحظة ضعفه من دون بندقية.

نجحت كجه جي الصحافية المقيمة في باريس، وصاحبة «العراق باقلامهن» (2003)، في تقديم القهر الأميركي الكامن في أحياء تكريت وبغداد والموصل، ووصف المداهمات على نحو ساخر، وبين عشوائية تحطيم الأبواب ومطاردة المرضى والاشتباة بالأبرياء، واسترسلت أيضاً على مدى صفحات في وصف انتظار المفقودين من الجنود الأميركيين وجنازات الأصدقاء والخوف من فقدانهم.

لسنا هنا أمام رواية مكتوبة بلغة ساحرة. ليس هناك تحليل في الرموز. فالشخصيات تدور في واقع صعب تصف المؤلف التفاعل معه على نحو دقيق، ولا تذهب بعيداً في لغة الخيال، لكنها لا تقترب أيضاً من التقرير. إنها لغة قريبة من الحياة التي تجسدها كجه جي حريضة على أصغر تفصيل.

تنتهي الرواية على زينة واقفة في مقبرة «أرلنغتن» في واشنطن، حيث يدفن الجنود الذين ماتوا في العراق. لقد تركت بلدها الأصلي بعدما ماتت الجدة التي تنتمي إلى جيل لم يلوث نفسه مع أي نظام، بينما تلوث الباقون، كل واحد بمقدار. وبموت الجدة، يكشف الواقع الجديد عارياً من القيم القومية والوطنية والحب. واقع ولد مصاباً بطاعون الأخلاق الحديثة، المعنونة بالولاء والمنفعة التي جاءت مع نظام صدام، ثم الحصار، ثم الحرب فالاحتلال والإرهاب والقتل والتعذيب.

زينة الآن عراقية مصابة بالشجن، كانت الجدة تريد إعادة تربيتها حين رجعت ببرة عسكرية أميركية، لكن الشجن كفيلاً بتربيتها في ولاية «ديترويت» حيث تفتقد الجميع من الأخ الحبيب والجدة الفقيدة، إلى العراق الراحل، وأميركا التي كانت لها وطناً ذات يوم.

كل الذين سقطوا في العراق تقدمهم كضحايا

كل الذين سقطوا في العراق تقدمهم كضحايا

عن حنا مينه... زوربا البحري في قلب العاصفة

خليه مويلا

لا تكمن قيمة روايات الكاتبة حنا مينه (1924) في نزعها التبشيرية، أو في مرجعياتها الاجتماعية، بل في طريقة تقديم هذه العوالم في إطار من التشويق والإمتاع، وهز ركود الحياة والأشياء من حوله، في ثنائيات متجاورة ومتصارعة في أن واحد: الرجل والمرأة، الحب والكراهية، الشجاعة والخوف، الحرية والاستبداد.

يوضح نذير جعفر في كتابه الجديد «حنا مينه حارس الشقاء والأمل» (سلسلة «أعلام الأدب السوري» - منشورات «دمشق عاصمة الثقافة العربية» 2008) أن أعمال حنا مينه التي تربو على حوالى ثلاثين رواية، لا تتوقف عند رصد الظواهر والشخصيات رسداً تقريرياً من خارجها، بل إن هذه الأعمال «تعنى باستبطان دواخلها، وتصوير ما

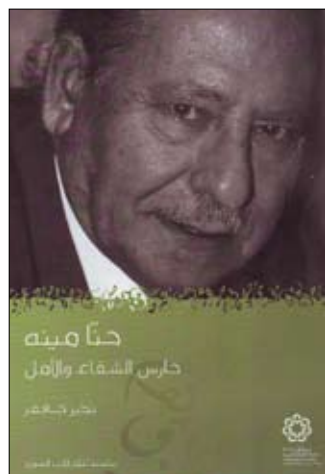
يعتمل فيها من صراع عبر علاقتها الحميمة أو العدائية بالمكان والزمان الذي تتحرك فيه».

كان حنا مينه في قلب العاصفة، على الدوام. ولعل سيرته الحياتية التي اتسمت بالقسوة والصعاب والمكابدات أضفت على أعماله بريقاً خاصاً، نجد تجلياتها في معظم أعماله الروائية. وهو ما جعل بعض النقاد يصفون صاحب «الياطر» بأنه بلزك الرواية السورية تارة، وزوربا الروائيين العرب تارة أخرى... لكن لقب روائي البحر ربما كان الأقرب إليه: فالبحر في استعارته وكنايته هو رمز الحياة كلها وهو «الوجه الأغمى والأكثر سخياً لدينامية الحياة والموت»... وعنه، قال حنا مينه مرة: «البحر كان دائماً مصدر إلهامي، حتى إن معظم أعماله مبجلة بمياه موجه الصاحب».

يشتمل الكتاب على شهادات في تجربة صاحب «الشراع والعاصفة»،

وحوارات أجريت معه سابقاً في صحف ومجلات عربية ومحلية ومختارات من نصوصه وأعماله. يقول الناقد الفلسطيني فيصل دراج: «من السهل أن ينتقد بعض الروائيين حنا مينه ومن الصعب عليهم أن يحتلوا مكانه. فقد اخترق المجتهد الدؤوب، أجيالاً روائية سورية، وبقي صاحب «الطروسي» في موقعه».

أما الناقدة والكاتبة اللبنانية ميني العيد فترى أن حنا مينه أبدع ما يمكن تسميته خطاب السيرة الذاتية الروائية، وهو «خطاب روائي تلون بطابع محلي تجذر به المحكي في واقعه الخاص». وهذا ما يؤكد الناقد والكاتب المصري صلاح فضل: «كسر بعنفوانه قوانين الزيف والنفاق في المجتمع ليقدّم أفدح سيرة ذاتية عرفتها الرواية العربية، وأحفلها بالصدق الجارح والثراء الفكري في التعبير عن الفقر المادي». ويعلن مينة في أحد حواراته: «أنا كاتب



بلزك الرواية السورية... واقعي على سن الرمح! الرمح!

واقعي رومانتيكي»، قبل أن يضيف «إنني واقعي على سن الرمح وفي واقعتي تجد الرمز والأسطورة».

ينظر النقد غالباً إلى روايات حنا مينه، على أنها صورة عن الواقعية الاشتراكية في الأدب والتبشير بعالم أفضل. لكن مساره الغني، يتناقض مع هذا التعميم الاختزالي. تبقى أعمال هذا الروائي الرائد في منطقة نقدية متحوّلة، تبعاً للخط البياني المتعرج لإبداعه... فيما يتفق النقد على أن صاحب «نهاية رجل شجاع» كتب ملحمة الشعب السوري في صراعه مع المستعمر والإقطاع والبورجوازية الطفيلية، من خلال أعمال «استمدت بريقها من صدقها الغني ومن نبل الرسالة التي حملها» كما يكتب نذير جعفر... هذا الصدق الذي «تجسد في شخصيات لها وجودها الموضوعي والمتخيل في أحداث ووقائع امتدت من عشرينيات القرن المنصرم إلى اليوم».